رابطة العالم الإسلامي
المجمع الفقهي الإسلامي

مؤتمر الانحرافات الفكرية بين
حرية التعبير ومحكمات الشريعة

أسباب الانحراف الفكري عند الشباب

د. محمد بن إبراهيم بن حسن السعيدي
المعهد العالي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
جامعة أم القرى

أبيض

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه..أما بعد

بعد إكمال الدين وإتمام الله النعمة على الثقلين الجن والإنس، برسالة النبي محمد ﷺ وانتشارها في الآفاق على أيدي صحابة رسول الله وتابعيهم؛ لم يمض وقت طويل حتى بدأ الانحراف عن هذا النهج القويم الذي ترك النبي ﷺ الأمة عليه وأخذ إقرار المسلمين في حجة الوداع على تبليغه، وأشهد اللهَ تعالى على ذلك في خطبته العظيمة في حجة الوداع؛ وقد بدأ الانحراف يَسِيرًا، ثم استشرى وعظم حتى سالت منه الدماء ثم ما زال يستشري، ثم يُجدد الله لهذه الأمة دينها على رأس كل مائة عام، كما وعدها رسولها ﷺ، حتى دخلت المائة الثانية عشرة والأمة في أسوأ حالات انحرافها، حين ضيع معظمها في سائر أنحاء بلاد المسلمين أعظمَ ما جاء به النبي ﷺ،وهو توحيد الله – عز وجل – في عبادته وحده لا شريك له؛ ولم يعد هذا الانحراف مقتصرًا على جهال الناس وعوامها، بل شمل علماءهم الذين تولى كثير منهم تزيين هذه الانحرافات بأنواع من التأويل ما أنزل الله بها من سلطان؛ حتى صار الانحراف عن الدين أصلًا، والاتباع ابتداعًا؛ إلى أن تم ما وعد الله به من تجديد الدين، فهيأ سبحانه لهذه المهمة العظيمة الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب – رحمه الله – فصدع بالدعوة إلى التوحيد ونبذ الخرافة، وإقامة الشريعة؛ فنفع الله بدعوته، وآزره عليها الإمام محمد بن سعود–رحمه الله – فأقام على أساسها دولة ذاع صيتها، وانتشرت رسائل أئمتها في المشرق والمغرب، حتى ضاقت على الخرافة بلاد الإسلام، وجدد الله النفع بدعوة الشيخ على أيدي علماء أجلاء في الهند وإفريقيا والمغرب؛ وكان من نتائج الدعوة: أن نهضت في القلوب عقيدة الولاء والبراء، فانتفضت الأمة على الاحتلال الأوربي لبلاد المسلمين، بعد أن كانت عقيدة الجبر والخرافة تسيطر على أهلها وتحول بينهم وبين مقارعة المحتل والانتقاض عليه.

وبعد الاستقرار التام للوضع السياسي والاقتصادي والأمني في المملكة العربية السعودية، والاستقرار السياسي النسبي في أكثر البلاد الإسلامية، بدأت العقول والقلوب تتجه نحو ما نادى به الشيخ محمد بن عبد الوهاب من العودة بالدِّين إلى ما كان عليه السلف الصالح رضي الله عنهم؛ وحققت الدعوة إلى منهج السلف مكاسب كبيرة على مستوى العلماء والمثقفين وعوام المسلمين، بالرغم من ممانعة التوجهات الخرافية ذات الجذور البعيدة في الدول الإسلامية، وأيضا مدافعة التيارات العلمانية والليبرالية والقومية واليسارية، والتي تمتلك في غالب البلاد الإسلامية زمام الحُكم والمناصب الثقافية والإعلام.

وظل هذا التقدم لانتشار الإسلام الصحيح - كما جاء به الرسول ﷺ وكما فهمه السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم - حتى السنوات الأخيرة؛ حيث أدى تراكم أثار متغيرات كثيرة، سياسية وإعلامية واجتماعية واقتصادية إلى وجود موجة ظاهرة من التحولات الفكرية، ليس لدى الشباب وحسب، بل لدى الكثير من المثقفين وبعض طلبة العلم، الأمر الذي أنتج انحرافات متنوعة الأشكال، إما عن الدين برمته، وهذا ما تمثل بموجة الإلحاد التي يختلف المراقبون في تقدير حجمها؛ أو تحولات داخل التدين كالانصراف إلى المنهج الغالي التكفيري؛ أو المنهج الخليط بين الفكر الإسلامي والليبرالي، والمسمى بالليبروإسلامية، والتي يصفها البعض بالتنوير الإسلامي؛ أو انحراف إلى المذاهب البدعية كالمنهج الخرافي بأنواعه، أو المنهج الاعتزالي الحديث.

وفي هذه الورقة، سوف أستطلع أبرز أسباب الانحراف الفكري بشكل عام، وأبرز أسباب الانحراف نحو التوجهات المختلفة بخصوص كل منها؛ معتمدًا في أكثر ذلك على ما سبرته من خلال معايشتي للعديد من هذه الانحرافات، ولقاءاتي مع العديد ممن ابتلوا بهذه الانحرافات ومناقشتي لهم؛ وأسأل الله تعالى

أن ينفع بهذه الورقة لتكون مفتاحًا لوضع برامج للحد من تفاقم هذه الظاهرة وعودة لمبتلين بها إلى جادة الصواب، والحمد لله رب العالمين.

محمد بن إبراهيم السعيدي

أبيض

تمهيد

تعريف الانحراف الفكري:

الانحراف في اللغة العربية مصدر من الفعل (انْحَرَفَ)، وأصله الفعل الثلاثي المتعدي إلى مفعول واحدٍ (حَرَفَ)، أي: أمال، ومنه ما روي في الأثر«ووصف سفيان بكفه فحرفوا» أي أمالها؛ وما رُوِيَ في الحديث:(وقال بيده فحرفها)أي أمالها[1].

وفي الاستخدام المعاصر يقال: انحرف، إذا مال عن الصواب[2].

فيكون الانحراف هو الميل عن الصواب.

والفكري، نسبة إلى الفكر، وهو: إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى المجهول[3].

فإذا أردنا رعاية المعنى اللغوي في استظهار المعنى الاصطلاحي نقول: إن الانحراف الفكري هو: الميل عن الصواب في طريق إعمال العقل في المعلومات مما يؤدي إلى الخطأ في التعرف على المجهولات.

وهو معنى صحيح في الدلالة على الانحراف الفكري بجميع أشكاله، سواء أكان خاصًّا كالانحراف في مسألة جزئية، أم عامًّا كالانحراف في مسألة كلية وسواء أكان في العقائد، أم في غيرها من أنواع المعارف؛ لكننا هنا في صددٍ خاصٍ، وهو الانحراف في الجانب العقدي وما يرتبط به من مصادر الاستدلال ومنهج الأخذ بالنصوص وأنواع الأدلة؛ ولذلك ينبغي أن يكون التعريف كما يلي:

---

(١) لسان العرب ص (٤)، مادة: ح ر ف.

(٢) المعجم الوسيط (١/ ١٦٧).

(٣) المعجم الوسيط (٢/ ٦٩٨).

الميل عن الإسلام كما جاء به الرسول - ﷺ - وكما فهمه عنه السلف الصالح - رضي الله عنهم - ميلًا كليًّا كجحد الدين، أو جزئيًّا كجحد بعض أصوله أو الابتداع فيه.

وهذا التعريف هو ما ستجري - بعون الله تعالى - عليه كامل هذه الورقة، والله المستعان.

الفصل الأول
الأسباب العامة للانحراف الفكري

المقصود بالأسباب العامة: تلك التي تكون وراء معظم الانحرافات الفكرية بالمعنى المتقدم للانحراف الفكري، وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض منها، والملاحظ أن بعض هذه الأسباب منطلق من طائفة العلماء؛ حيث تكون أخطاؤهم منشأ بعض هذه الأسباب للانحراف الفكري عند الشباب خاصة، ومن ثَمَّ عند الأمة جمعاء؛ لأن العلماء أو المنتسبين إلى العلم الشرعي المعروفين بتعاطيه - حتى لو لم يبلغوا درجة العلماء - إذا خالفوا في المسائل القطعية أو الإجماعية أضعفوا الثقة بالعلم الشرعي وأهله، وفتحوا مداخل الشيطان إلى قلوبهم وعقولهم، فاضطربت أحوالهم، ولم يعودوا يَرَوْن لثوابت الدين عصمة وحرمة، وظنوا أن ما أبيح اليوم وكان محرما تحريما قطعيًّا بالإمكان أن يكون قابلًا للإباحة في المستقبل؛ وهذا يضعف عندهم رعاية الدين واحترام الفتوى، وذلك من أعظم مداخل إساءة النظرة إلى الدين في قلوب بعض الشباب، الذين ربما اتجهوا إلى الأفكار التي تُحِلُّهم من قيود الدين، ومن أعظم مداخل إساءة النظر إلى علماء الدين عند بعضٍ آخر من الشباب؛إذ تفتح لهم باب الأخذ من أهل التشدد حتى يؤول بهم الأمر إلى فكر الخوارج والغلاة.

وأول هذه الأسباب: البغيُ

وقد ورد هذا السبب في عدد من آيات القرآن منها قوله تعالى:﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** ﴾ (البقرة: ٢١٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسلامُ وَمَا اختَلَفَ الَّذينَ أوتُوا الكِتابَ إِلّا مِن بَعدِ ما جاءَهُمُ العِلمُ بَغيًا بَينَهُم وَمَن يَكفُر بِآياتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَريعُ الحِسابِ﴾ (آل عمران: ١٩)

وقوله عز وجل: ﴿وَما تَفَرَّقوا إِلّا مِن بَعدِ ما جاءَهُمُ العِلمُ بَغيًا بَينَهُم وَلَولا كَلِمَةٌ سَبَقَت مِن رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَينَهُم وَإِنَّ الَّذينَ أورِثُوا الكِتابَ مِن بَعدِهِم لَفي شَكٍّ مِنهُ مُريبٍ﴾ (الشورى: ١٤).

فقد ذكرت هذه الآيات أن الناس كانوا في أصلهم على الإسلام، وأنهم لم يُؤْتُوا من قِبَل الجهل في أول تفرقهم، ولكنهم أُتُوا من قِبَل البغي، والبغي: الاعتداء والطغيان وتجاوز الحد، وقد جاء في الآية مطلقًا، فأفاد أن البغي بجميع أشكاله كان سببًا في التفرق والاختلاف على الإسلام الذي خلق الله عليه الناس.

فتقديم الدنيا على الدين بطلب الرياسة والصدارة وإيثارها على الحق من البغي هو سبب الانحراف منذ الأزل، وقد ذكر ذلك جمع من المفسرين في بيانهم للآيات[1]. وذلك أن كلمة الحق قد تتعارض مع أهواء أهل الرئاسات، فينصرف من حُمِّلُوا رسالة العلم إلى إرضاء كبرائهم، بالانحراف عن جادة الصواب، إما بتحريف النصوص أو تبديل معانيها، وهو ما عُرف بالتأويل الباطل أو الزيادة فيها ما ليس منها.

فينشأ عن ذلك انحراف عن الدين وتفرق فيه لدى الأمة؛ ولذا أخذ الله تعالى ميثاق أهل العلم بعدم كتمانه، وذم علماء أهل الكتاب لأنهم طلبوا به الدنيا، فأخفوا منه وبدلوا وحرفوا؛ كي يتوافق مع أهواء أهل المال والرئاسات، قال تعالى: ﴿وَإِذ أَخَذَ اللَّهُ ميثاقَ الَّذينَ أوتُوا الكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنّاسِ وَلا تَكتُمونَهُ فَنَبَذوهُ وَراءَ ظُهورِهِم وَاشتَرَوا بِهِ ثَمَنًا قَليلًا فَبِئسَ ما يَشتَرونَ﴾ (آل عمران: ١٨٧). ونقل أبو حيّان عن الجمهور أن الآية عامة في كل من آتاه الله

(١) تفسير الطبري (٤/ ٢٨١).

علما، وعلماء أمة محمد ﷺ داخلون في ذلك[1]أي أن الميثاق قد أخذ على علماء الإسلام أيضًا، ولا يخفى على متابع لتاريخ الانحراف عن النهج القويم بين المسلمين أنّ طائفة ممن رُزقُوا العلم كان لهم أثر في هذا الانحراف، وذلك بالاستجابة لأهواء الكبراء تارة كما حصل من استجابة نزر يسير من العلماء لأهواء الخليفة المأمون في نشر الاعتزال، أو أهواء الوزير نظام الملك[2]في نشر المذهب الأشعري، ومن بعد ذلك إقرار كثير من العلماء بِدع المتصوفة، وخرافاتهم، وشركيّاتهم حتى تجاوز الأمر الدفاع عن هذه البدع والاستدلال لها بالنصوص الشرعية بطرق استدلال باطلة حتى استقرت بين المسلمين وصبغت صورة الإسلام بصبغتها، لدرجة أن جاءت عصور وقد تقلصت مظاهر توحيد الله تعالى والإخلاص له بالعبادة في أكثر بلاد المسلمين إن لم نقل كلها.

وفي عصرنا الحاضر نجد هذا الأمر واضحًا جليًّا لدى فئات من المحسوبين على العلم الشرعي،يُقَرِّرون مخالفة المنهج الصحيح بغيًا بينهم، إما إرضاء لرؤساء أو مؤسسات أو توجهات حزبية وسياسية، كالإفتاء بجواز الاستغاثة بغير الله تعالى، وغير ذلك من القضايا المتعلقة بالتوحيد وسد ذرائع الشرك – الثابتة في السنة النبوية –وكذا الإفتاء بجواز الربا في المعاملات البنكية[3]، ومنهم من أفتى بعدم شرعية حد الردة أو حد الرجم، وخالفوا في بعض القطعيات والمعلومات من الدين بالضرورة، ومنهم من خالف في عدد من المسائل المتعلقة بحجاب المرأة[4].

---

(١) البحر المحيط (٣/ ١٣٦).

(٢) أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطويسي، أحد أهل العلم من الوزراء في الدولة السلجوقية كان دينا حازما مُصْلِحًا ابتلي بفرضه للمذهب الأشعري على المدارس في جميع أنحاء مملكته، قُتِل شهيدًا إن شاء الله سنة ٤٨٥هـ واتُّهم فيه الباطنيون؛ سير أعلام النبلاء، (١٩/ ٩٤).

(٣) بعض العلماء المخلصين قديمًا أجازوا الفضل في وفاء القروش بالأوراق النقدية أول ما ظهر التعامل بها على اعتبار أنها ليست من الأصناف الستة الواردة في الحديث ولا ما يشترك معها في العلل التي أشار إليها الفقهاء قديمًا؛ ولكن هذا الرأي انقرض ولم يعد ينادي به إلا بعض من يُتَّهم بالهوى والله أعلم؛ وقد صدر فيها قرار هيئة كبار العلماء رقم ١٠ تاريخ ١٧/ ٨ / ١٣٩٣هـ.

(٤) راجع في هذه المسائل وأمثالها والقائلين بها: كتاب منهج التيسير المعاصر، للدكتور عبدالله بن إبراهيم الطويل.

ومن مظاهر البغي التي أجد أن الآيات الكريمات تشملها تجاوز الحد في تقدير حدود العقل، فإن الله تعالى جعل للعقول مجالات كلها تتعلق بعالم الشهادة الذي هو عالم المحسوسات، فالعقل في النظر فيها أداة صحيحة يستطيع الوصول بها إلى الأحكام عن طريق التجربة، والاستقراء، والقياس، وغيرها من مهارات العقول التي يُمْكِن تسليطها على المحسوسات من ملموسات ومرئيات ومسموعات، واستنتاج الأحكام فيها؛ وهذا الأمر هو ما نتج عنه كثير من العلوم الإنسانية النافعة في القديم والحديث من الكيمياء والفيزياء وعلم الإنسان والنبات وعلم الأرض والفلك؛ بل وعلوم أخرى كالتاريخ والجغرافيا وعلوم اللغة.

ويمكن للعقل أن يستدل بالمحسوسات على المغيبات، كما أمر سبحانه عباده بالتفكر في خلق السماوات والأرض وما فيهما من عجائب على كمال ربوبيته ووحدانيته في ألوهيته، وذلك في آيات كثيرة من كتابه، قال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرضِ وَاختِلافِ اللَّيلِ وَالنَّهارِ وَالفُلكِ الَّتي تَجري فِي البَحرِ بِما يَنفَعُ النّاسَ وَما أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِن ماءٍ فَأَحيا بِهِ الأَرضَ بَعدَ مَوتِها وَبَثَّ فيها مِن كُلِّ دابَّةٍ وَتَصريفِ الرِّياحِ وَالسَّحابِ المُسَخَّرِ بَينَ السَّماءِ وَالأَرضِ لَآياتٍ لِقَومٍ يَعقِلونَ**﴾ (البقرة: ١٦٤).

لكن العقل عاجز عن التعرف على عالم الغيب إلا بالقدر الذي تُتِيحُه نصوص الوحي، فلا يمكن لأحد أن يعرف تفاصيل عالم البرزخ،أو ما يجري في اليوم الآخر، وتفاصيل المحشر وكيفية العرض والحساب، والورود على الحوض والاستظلال بالعرش، وكيفية الانتقال من المحشر إلى الجنة – نسأل الله من فضله – أو إلى النار – نسأل الله تعالى أن يعيذنا منها ويرحمنا – وكذلك تفاصيل عالم الجن والملائكة والحياة في السماوات السبع، وكذلك كيفية صفات الرحمن عز وجل واللوح المحفوظ، وتقدير المقادير وقضاؤه على الخلق.

ومن الغيب أيضا: أسباب تشريع كثير من الأحكام التعبدية التي أُمِرُنا بالتسليم لها، كأعداد الصلوات وأوقاتها، ومقادير الزكاة، وتفاصيل الحج والعمرة، فهذه وغيرها إنما حظ العقل التدبر فيها والبحث في أحكامها وحِكَمِها، وكذلك يمكن للعقل دراسة أدلتها والترجيح بينها على الأسس التي أقرَّها العلماء، وكان للعقل أيضا دور في صناعتها[1].

والحديث عن مجالات قُدُرَات العقل وعجزه يطول، لكن المراد: أن خوض العقول فيما لا تملك أدوات الخوض فيه كتفاصيل عالم الغيب هو من أسباب الانحراف؛ وذلك أن مآل خوض العقل فيما يعجز عن إدراكه: إما إنكار مقتضيات النصوص، وإما ادِّعاء خلاف ما تقتضيه النصوص، وقد حصل هذا النوع من الانحراف منذ القرن الأول في الإسلام؛ حيث ظهرت الجهمية، وأنكروا أسماء الله تعالى وصفاته، وظهر المعتزلة بعدهم، وأنكروا صفات الله تعالى دون أسمائه؛ وظهر بعدهم الكلابية والأشاعرة والماتريدية فأثبتوا لله سبعًا من صفاته دون سائرها؛ وذلك أنهم أدخلوا العقل في ذات الله تعالى، وظنوا أنهم قادرين على إدراك كيفية الصفات بالنظر العقلي، فأداهم ذلك إلى ما وصلوا إليه من إنكار الصفات حين عجزوا عن إدراك كيفيتها، وتوهموا استحالة اتصافه سبحانه بالصفات؛ لإفضاء إثباتها إلى تشبيهه سبحانه بالمخلوقين، وزعموا أن التعطيل هو المخرج الوحيد من التشبيه.

وكذلك حين أقحموا عقولهم في البرزخ واليوم الآخر، وعجزت عقولهم عن إدراك الكيفيات، أنكروا ما دلت عليه النصوص من عذاب القبر وسؤال الملكين والحوض والميزان والصراط[2].

وهذا المظهر من البغي العقلي من أسباب الانحراف المعاصر أيضا؛ حيث أدى إعمال العقول في عالم الغيب إلى إنكار بعض ما جاءت به النصوص لدى

(١) أي: تلك الأسس العلمية.

(٢) مقالات الإسلاميين ت ريتر (ص: ١٥٥).

المنحرفين، وأحياء الاعتزال، والمذاهب المنبثقة من الاعتزال أيضًا، كما أدى تدخل العقول في بعض الأحكام الشرعية إلى الاستدلال به على بطلانها فيما زعموا رغم ثبوتها بالنص.

السبب الثاني من الأسباب العامة: قلة العلماء

وهو أمر أخبر عنه النبي ﷺ حيث قال: «إِنَّ اللهَّ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[1].

وإذا رجعنا في قياس العلماء إلى ما كان عليه الحال في العصور المتقدمة، بل قبل مائة عام فقط، فإننا ربما جزمنا بشبه انعدام للعلماء؛ حيث كان وصف العالم لا ينطبق إلا على من ثبتت إحاطته بأمور كثيرة من الحديث والفقه والتفسير والأصول واللغة، وهذا واضح في كتب التراجم التي تتبع أحوال العالِم وشيوخه وكتبه التي قرأها ومرتباته، وهذه الإحاطة الشاسعة بالعلوم ما زالت تقل في أهل العلم شيئًا فشيئًا حتى آل المآل إلى ما نحن فيه، وأصبح وصف العالم يطلق على من لديه مفاتيح بعض العلوم أو تخصص في مسائل محدودة من فن واحد من الفنون.

وعلاقة هذا بالانحراف الفكري من جهتين:

الأولى: أنّ افتقار الأمة إلى العلماء أدى بها إلى تقديم أناس ليسوا من أهل العلم، إما اغترارًا بسيماهم أو شهاداتهم أو مناصبهم؛ فأفتوا بغير علم فضلوا وأَضَلُّوا كما أخبر ﷺ.

كما أن قلة العلماء أدت بالشباب التوّاق إلى دراسة العلم الشرعي أن يقرءوا كتبه على أنفسهم دون شيوخ، أو يقرءوها على من ليسوا أهلًا لإقرائها، ومعلوم

(١) صحيح البخاري كتاب العلم حديث رقم (١٠٠).

أن الأصل في علوم الشريعة التلقي عن الشيوخ لعدد من الأسباب يعرفها من مارس هذه العلوم دراسة وتدريسا، وقد قال أهل العلم قديما «من كان شيخه كتابه كان خطؤه أكثر من صوابه». وقال الشافعي - رحمه الله تعالى – قصيدة فيما روي له من شعر الحكمة:

أخي لن تنال العلم إلا بستةٍ ... سأنبيك عن تفصيلها ببيانِ

ذكاءٌ وحرصٌ واجتهادُ وبلغةٌ ... وصحبة أستاذ وطول زمانِ

فدراسة العلوم الشرعية دون اعتماد على شيخ متمكن يُفْقِد الطالب منهجية الطلب، فلا يبدأ دراسة العلوم وفق الترتيب الذي يُكسب التأصيل الصحيح؛ كما أن الطالب ربما استصعب بعض العلوم المهمة واقتصر على ما يظنه أسهل عليه، كمن يستغني عن دراسة العقيدة بحجة عدم احتياجه لها؛ أو من يقتصر على دراسة الفقه دون الحديث أو العكس، أو من يكتفي بدراسة الفقه عن أصول الفقه، أو من يتهاون في علوم الآلة من اللغة والنحو والصرف والبلاغة، بل ربما عظَّم الطالب من العلوم ما يشغله عن العلم الصحيح كمن يبدأ دراسته بتعظيم علم الكلام والاغترار بما يقال عنه من العقلانية وغير ذلك من الثناء الذي لا أصل له، فيؤدي به ذلك إلى النقمة على أهل الحديث والأثر، ووصفهم بما كان يصفهم به علماء الكلام الأُوَل من النسبة إلى الحشو والتجسيم، وأشباه ذلك.

الجهة الأخرى:أن قلة العلماء في الساحة أدى إلى ضعف مكانتهم المعنوية، والتي كانت مؤثرةً في استبقاء التدين والتسليم لسلطان الدين وأحكامه، إذ كانوا يمثلون قدوة حسنة قريبة من الناس في أحيائهم وأماكن عبادتهم، وكان لهم دور كبير في حل مشكلات الناس العائلية والمالية والفكرية أيضا، فلما تضاءلت أعدادهم أصبح التواصل معهم صعبًا، ومن ثَمَّ ضَعُف التأثر بهم في الجانب السلوكي أو المعرفي.

كما أن كثيرًا من هؤلاء الفئة القليلة من أهل العلم قد حصروا أنفسهم في جانب الفتوى الشرعية أو جانب البحث العلمي، وضعُف نشاطهم في الجانب الدعوي والفكري والاجتماعي، مما ترك فراغًا خطيرًا في هذه الجوانب تم تعويضه بكثير من أهل الخير الراغبين في الدعوة إلى الله والمتطوعين في أعمال الخير، لكن عملهم هذا على ضعف غالب في الجوانب العلمية، فكانت أسئلة الشباب المُلِحَّة في النوازل العصرية في فقه السياسة والجهاد والثوابت والمتغيرات تتوجه إلى هؤلاء الذين أصبحوا يوصفون بالدعاة - والذين هم أشد قربًا إلى الشباب خاصة وإلى المجتمع بشكل أعم - من العلماء العاملين الذين هم الأهدأ بما أوتوا من علم وحكمة على الجواب عن هذه الأسئلة؛ فتكون أجوبة الدعاة قاصرة عن حل الإشكال الراسخ في ذهن الشاب، أو منحرفة بذهنه إلى الاتجاه الخاطئ.

وربما أدت وفرة الدعاة وقلة العلماء إلى ضعف بعض من هؤلاء الدعاة أمام المشكلات المطروحة، وأخذهم فيها بأقوال تتوافق مع عواطف الشباب الجامحة المنحرفة ذات اليمين أو ذات اليسار.

السبب الثالث:طول الأمد وقسوة القلوب

الأصل في هذا السبب هو قول الله تعالى:﴿**أَلَمَ يَأنِ لِلَّذينَ آمَنوا أَن تَخشَعَ قُلوبُهُم لِذِكرِ اللهِ وَما نَزَلَ مِنَ الحَقِّ وَلا يَكونوا كَالَّذينَ أوتُوا الكِتابَ مِن قَبلُ فَطالَ عَلَيهِمُ الأَمَدُ فَقَسَت قُلوبُهُم وَكَثيرٌ مِنهُم فاسِقونَ**﴾(الحديد: ١٦).فقد عاتب الله تعالى المؤمنين وهم في مكة بعد أربع سنوات من إسلامهم آمرًا إياهم بالخشوع لذكر الله تعالى وآيات القرآن الكريم، والخشوع من معانيه كما ذكره المفسرون: الطاعة القلبية كما نقله الطبري عن ابن عباس رضي الله عنه[1]، والخشوع بمعنى خضوع القلب ورِقَّته:صفة صحيحة يتميز بها أهل الإيمان، وتجعلهم ينقادون لتعاليم الشريعة ويسلمون لها؛ ولهذا وصف الرب - جلّت قدرته - المؤمنينَ بالخشوع

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ١٨٧).

لذكر الله في أكثر من موضع من كتابه،قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال: ٢).وقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر: ٢٣).

قال ابن رجب – رحمه الله –: «فهذه الآية تتضمن توبيخا وعتابا لمن سمع هذا السماع، ولم يحدث له في قلبه صلاحا ورقة وخشوعا؛ فإن هذا الكتاب المسموع يشتمل على نهاية المطلوب، وغاية ما تصلح به القلوب، وتنجذب به الأرواح، المعلقة بالمحل الأعلى إلى حضرة المحبوب، فيحيا بذلك القلب بعد مماته، ويجتمع بعد شتاته، وتزول قسوته بتدبر خطابه وسماع آياته، فإن القلوب إذا أيقنت بعظمة ما سمعت، واستشعرت شرف نسبة هذا القول إلى قائله، أذعنت وخضعت، فإذا تدبرت ما احتوى عليه من المراد ووعت، اندكت من مهابة الله وإجلاله، وخشعت»[1].

وبين سبحانه أن بني إسرائيل لما طال عليهم الأمد بعد موسى عليه السلام، كان ذلك سببا في قسوة قلوبهم وبُعدِهم عن الامتثال لما جاء في كتابهم؛ وإذا كان الله قد عاتب المؤمنين بهذه الآية، ومحمد ﷺ بينهم؛ تنشيطًا لهم وحثًّا، فإن قسوة القلوب وضعفها عن الامتثال والتسليم أصبح واقعًا معاشًا.

ولا شك: أن لهذه القسوة والضعف أسبابها التي ينبغي علاجها؛ إلا أنها تُمثِّل سببًا رئيسًا في الانحرافات الفكرية الخطيرة التي تضرب في الأمة.

السبب الرابع: ضعف المناهج الدينية أو الضعف في طرق تدريسها

لا أعلم بلدًا غير المملكة العربية السعودية من بلاد العالم الإسلامي يهتم تعليمها العام بالمواد الدينية؛ حيث يدرس الطلاب منذ المرحلة الابتدائية مواد

(١) تفسير ابن رجب (٢/ ٣٧٢).

القرآن الكريم والتوحيد والفقه والحديث والتفسير والتجويد، أما بقية بلدان المسلمين، فإما أن المواد الدينية لا تُدَرَّس في التعليم العام أصلًا، أو يُدَرِّسون مادة عامة ضعيفة المستوى مقارنة بما هو مطلوب، وهي مادة التربية الإسلامية، أو الدين، أو الثقافة الإسلامية، أيًّا ما كان اسمها، لكن النتيجة أنها غير كافية في تأسيس الناشئة على علوم الإسلام ومبادئه، وإكسابهم القناعات التي تُمكنهم من مقاومة دواعي الانحراف الفكري التي يعج بها العصر، وبالنسبة للشباب في المملكة العربية السعودية لم أجد دراسة واضحة تحدد نسبة الانحراف الفكري بين الشباب واتجاهاته، حتى أستطيع التعرف على أثر المناهج الدينية في النأي به عن موجة الانحرافات الفكرية؛ لكن المتابع لما تبثه وسائل الإعلام الاجتماعي الحديث يجد أن الانحرافات الفكرية لا تمثل نسبة كبيرة بين الشباب السعوديين المستخدمين لهذه الوسائط الإعلامية، وذلك أنك لا تجد من بين مئات الآلاف من حسابات التويتر والسناب شات والإنستقرام وغيرها لا تجد سوى نسبة يسيرة ممن يمكن تصنيفهم كمنحرفين فكريًّا، سواء إلى جانب الغلو أو جانب الانفتاح؛ وعندي أن الأمر في حاجة إلى دراسة قوية، ولا يكفي في إعطاء النتيجة في قضية مهمة كهذه مجرد الانطباعات، ولو كانت من متابع جيد لمنتجات الشباب ومشاركاتهم.

ومع ذلك فمن المنطقي جدًّا: أن تكون المناهج الدينية مؤثرة في تقليص حدة الانحراف الفكري.

ومع ذلك فالمملكة العربية السعودية في حاجة إلى تطوير مستمر وعناية فائقة بمعلمي المواد الدينية، وذلك لتربية جانب القدوة الصالحة فيهم؛ إذ إن المنهج الديني الجيد حين يتولى تدريسه من لا يُمَثِّل هذا المنهج، يوصل رسالة إلى الطالب بضعف أهمية هذه المادة أو عدم جدواها؛ ولعل من أسباب الانحراف الفكري ضعف التأثير الإيجابي لمعلمي الدين على طلابهم.

السبب الخامس: الاستهداف العالمي لعقول الشباب المسلمين.

وأعظم مشروع اتفق عليه الغرب برمته هو ما عُرِف بالتغريب؛ ويمكننا القول: إن التغريب هو السعي لصبغ العالم بصبغة الغرب ظاهرةً في القيم والأخلاق والطبائع وباطنة في الرؤى والأفكار والتصورات، ولم ينكر الغرب يوما ما مشاريعه التغريبية، بل كتابات مفكريهم وسياسييهم ومستشرقيهم ناضحة بمثل هذا الاعتراف، ولم يأت إنكار هذه المشاريع إلا من قليل من كتاب المسلمين الذين غلب عليهم التأثر الفكري بالمشاريع التغريبية.

مرَّ التغريب بتسميات عديدة وكل منها ينطبق على بعض جوانبه؛ منها: التبشير، والاستشراق، والمثاقفة،والعولمة،والأسلمة، والغزو الفكري، وحرب الأفكار.

ويمكن أن يقال: إن تاريخه يعود إلى نهايات الحروب الصليبية، حيث يذكر المؤرخ (جان دي جوانفيل) في كتابه تاريخ القديس لويس: أن الملك لويس التاسع هو من وضع التصورات الأولية لغزو المسلمين فكريا أي منذ عام ٦٤٧هجرية، وجاءت حملة نابليون على مصر سنة١٢١١ه محمّلة بتعاليم لويس التاسع، وهي هزيمة المسلمين عن طريق تغييرهم، ومن يدرس الحملة الفرنسية على مصر يجد مظاهر ذلك واضحة في كثير من أعمال نابليون وخليفتيه على مصر[1].

ومن نتائجها الظاهرة: تقهقر حركات الإصلاح الأصيلة في مصر والنابعة من قلب الأمة، ودعم حكومي في عهد البلاد الخاضعة للدولة العثمانية ودولة محمد علي ومن بعده من ملوك مصر لحركات الإصلاح المتأثرة بالقيم الغربية؛ وللحق فإنه لم يستطع مقاومة المد التغريبي سوى الحركة السلفية في جزيرة العرب؛ لذا

(١) يراجع في أعمال الحملة الفرنسية كتاب: مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسية لعبد الرحمن الجبرتي؛ تحقيق عبدالرحمن عيسى وعماد هلال، منشورات العربي للنشر والتوزيع ط: الأولى ١٩٩٨.

شكا المستشرق البريطاني هاملتون جب (ت ١٩٧١م) كونهم لم يستطيعوا بعد زرع القيم الغربية هناك، وذلك في كتابه إلى أين يتجه الإسلام[١].

وقد اكتشف المفكرون الغربيون أن من أنجح مداخل القيم الغربية إلى حياة الناس ما كان عن طريق الفتوى الشرعية؛ حيث ابتلي بعض العلماء بالحكم بشرعية كثير من القيم الوافدة، وكان الاستعمار الإنجليزي يشجع هذا الاتجاه بشكل قوي؛ لذلك كتب عنهم اللورد كرومر وهو المعتمد البريطاني في مصر «لا ريب عندي في أن السبيل القويم الذي أرشد إليه المرحوم الشيخ محمد عبده هو السبيل الذي يؤمل رجال الإصلاح من المسلمين الخير منه لنبي ملتهم إذا ساروا فيه فأتباع الشيخ حقيقون بكل ميل وعطف وتنشيط من الأوروبيين»[٢].

وقد ظهر بعد ذلك من العلماء من حكم بإسلامية العلمانية، وهو الشيخ علي عبد الرازق، وألف كتاب الإسلام وأصول الحكم سنة ١٩٢٥م وقد أقام الدنيا حينها، وفي وقتنا أصبحت أسلمة العلمانية مشروعا عمليا وليست فكرا مجردا، بل نادى بها بعض قادة الجماعات الإسلامية قريبًا.

ولا يزال مشروع نشر القيم الغربية بطريق الفتوى الأكثر قبولا في دوائر التخطيط الغربية والأمريكية، وهو أبرز أسلحة ما يسميه الغرب حرب الأفكار؛ إذ يؤكد توماس فريدمان على سلاح أسلمة القيم الغربية بقوله:«إذا أراد الغرب تجنّب حرب الجيوش مع الإسلام، فإنَّ عليه خوض حرب المبادئ في داخل الإسلام»[٣].

وتقول نشرة راند (الإسلام بعد١١/ ٩ الصادرة سنة ٢٠٠٤م): «إنَّ الحرب من أجل الإسلام سوف تتطلَّب صنع جماعات ليبراليَّة بهدف إنقاذ الإسلام من خاطفيه»[٤].

---

(١) عن كتاب الفكر الإسلامي المعاصر، ص ٦١ غازي التوبة.

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام، (٣/ ٤٢٦).

(٣) مجلة يديعوت أحرونوت ٢٦/ ٨ / ٢٠٠٣نقلا عن مجلة البيان عدد ١٩٢سنة١٤٢٤ مقال أحمد فهمي: كلمات غير عابرة.

(٤) عن بحث قادة الغرب يقولون: ادعموا الليبراليين، خباب مروان الحمد، نشر شبكة الفوائد.

والمنقولات لإثبات هذا الأمر عن الغرب أكثر من أن تحصى، والمواقع العلمية الإلكترونية مليئة بها، وكلها تشهد: بأن هناك عملاً نحو تغريب شبابنا يأخذ العديد من المناحي الثقافية والدينية والإعلامية، وقد أدى هذا الجهد الكبير منذ أكثر من ثمانين عامًا الكثير من الثمار، والجديد أنه يؤدي ثماره في السنوات الأخيرة في المملكة العربية السعودية؛ حيث يشهد الواقع باستهدافها بشكل خاص، وتنص جميع التقارير الغربية على ضرورة محاربة منهجها السلفي[1].

(١) يراجع في التقارير الغربية التي تنص على مواجهة السلفية كتاب: الإسلام الذي يريده الغرب؛ وكتاب عندما يكون العم سام ناسكًا؛ كلاهما من تأليف د. صالح بن حساب الغامدي، منشورات مركز الفكر المعاصر.

أبيض

الفصل الثاني
الأسباب الخاصة للانحراف الفكري

تمهيد

ليست الانحرافات الفكرية اتجاهًا أو مستوى واحدا، بل هي اتجاهات ومستويات مختلفة ومتفاوتة في مدى حدتها، ومدى قربها وبعدها من المنهج الصحيح والدين الذي ترك رسول الله ﷺ صحابتَه عليه، ولن يسع هذا المقام الحديث عن كل ذلك بالتفصيل، لكن سوف أقتصر على ذكر بعض الأسباب الخاصة بالانحراف الفكري المتمثل في توجه بعض الشباب نحو الإلحاد، وفي الانحراف الفكري المتمثل في نبذ التدين واعتناق الفكر الليبرالي، أو ما هو أخف منه قليلًا وهو الفكر المسمى بالتنويري أو الليبروإسلامي.

أهم أسباب الانحراف نحو الإلحاد:

أولًا: العمل المؤسسي العالمي في الدعوة إلى الإلحاد.

فممَّا يُثْبِتُه الباحثون في شأن الإلحاد: أن الدعوة إليه والعمل على نشره توجه مؤسسي عالمي لنشره في جميع أنحاء العالم، وليس العالم الإسلامي وحسب؛ وتعمل هذه المؤسسات بشكل دؤوب، وتستخدم كثيرًا من الوسائل التي تتيح لأفكارها الإلحادية فرصة الانتشار في جميع بلدان العالم ولدى معتنقي جميع الأديان من التأليف والنشر والبرامج الإذاعية والتلفزيونية والأفلام السينمائية.

فمن أشهر المؤسسات العالمية التي تعمل على نشر الإلحاد في العالم:

١- التحالف الدولي للملاحدة.

٢- رابطة الملاحدة.

٣- الاتحاد الدولي للاتجاه الأخلاقي والإنساني.

٤- الرابطة الدولية لغير المتدينين والملحدين.

وهناك مؤسسات كثيرة في مختلف بلدان العالم، ويصدر عن هذه المؤسسات وغيرها الكثير من المؤلفات والبرامج والأفلام وتدير العديد من المواقع الإلكترونية.

فمن أشهر المؤلفات ذات الرواج العالمي لترويج الإلحاد:

١- نهاية الإيمان لسام هارس.

٢- وهم الإله لريتشارد دوكنز.

٣- كسر السحر، لدانييل دينيت.

٤- الفرضية الفاشلة لفيكتور ستنجر.

كما تنظم هذه المؤسسات مظاهرات واعتصامات، وتعمل على نشر إعلانات في الطرق والأسواق، وقد قدم المهندس عبدالله العجيري ملخصًا مفيدًا لنشاطاتهم العالمية في كتابه ميليشيا الإلحاد[1].

وهذا النشاط العالمي يُنشر في العالم العربي مترجمًا، أو عبر المواقع الإلكترونية الخاصة بالملاحدة؛ كقناة الملحدين، وشبكة الإلحاد العربي، وملتقى الملحدين العرب، ومنتدى الملحدين العرب، وجمعية الملحدين السعوديين، وشبكة الملحدين السعوديين.

فهذا العمل المؤسسي لا شك أنه من أسباب الانحراف في اتجاه الإلحاد، فالقائمون عليه يبذلون جهدًا في تصيد الشباب ومراسلاتهم عبر البريد الإلكتروني، والفيس بوك، وتوتير، وغيرها، ويقومون بإلقاء الشبهات ومحاولات الإقناع، والاستقطاب للتسجيل في هذه الشبكات وتكثير السواد، وإظهار أنفسهم بمظهر الكثرة المتغلغلة في المجتمع وإن كانت حقيقتهم غير ذلك.

ثانيًا: المظالم والنكبات التي تسود العالم

وهذا السبب قد يكون غريبًا نوعاً ما، لكنه من أكثر الأسباب تأثيرًا، بل من أكثرها طَزْقًا لدى المروجين للفكر الإلحادي؛ ويرجع ذلك إلى حجم الشر في

(١) ميليشيا الإلحاد ص ١٧ وما بعدها، مركز تكوين الطبعة الأولى

العالم، وكونه لا يمكن أن يقع مع وجود إله رحيم -تعالى الله عمَّا يقولون- وكيف يكون الإله رحيمًا، وهو يرى الأطفال يقتلون ويتيمون، والشعوب تُشَرَّد دون أن يفعل شيئًا؟

وقد حصلت هذه الموجة من الإلحاد في أوربا، بعد الحربين العالميتين، حين قضت الحربان على ملايين البشر ويتمت ورمَّلت وجرَّحت وشرَّدت ملايين آخرين؛ وبحكم الارتباط بين العالم الإسلامي وأوربا عن طريق الاستعمار، وُجِد الإلحاد في تلك الحقبة بين المثقفين من أبناء المسلمين.

إلا أن اختفاء مظاهر الحرب، واندماج الجراح مع السنين أخبى نار الإلحاد في العالم بأسره؛ ثم عادت هذه النار لتشتعل من جديد متخذة من المظالم التي يتعرض لها البشر في كل الدنيا من الدول المستكبرة حطبًا له.

ولما كانت بلاد المسلمين من أكثر بلاد العالم تعرضًا للظلم، في فلسطين والصومال وإفريقيا الوسطى وبورما والعراق وسوريا؛ كانت هذه الشبهة سريعة الانطلاء على زائغي القلوب من أبناء الشباب المسلم.

هذا بالإضافة إلى الكوارث الكونية من أوبئة تنتشر في بلاد الفقراء في إفريقيا وآسيا، ولا تجد التفافتا من الدول الغنية في العالم، سوى أنّها تستغل فقر تلك البلاد؛ لاستنزاف خيراتها؛ وكذلك الزلازل والبراكين والفيضانات، والتي لا تفرِّق بين طفل وفتاة وأرملة، وشيخ وشيخة، بل تأخذ كل أولئك دون تمييز.

فالتفكير من هذه الزاوية دون الالتفات إلى النظرة المتكاملة للحياة، وأنَّها دار ممرٍّ وليست دار مقرٍّ، وأنّ ما يصيب البشر في هذه الدنيا إنما هو بأعمالهم فيها، وأنّ نعم الله لا تدوم على من لم يرعها؛ إلى غير ذلك من القضايا التي لا يمكن فهمًا جيدًا إلا مع نصيب إيماني مستقرٍّ في القلوب.

أقول: إن التفكير من هذه الزاوية يوقع ضعفاء الإيمان في موجة من الشك تصل ببعضهم إلى الإلحاد، نسأل الله السلامة.

وهناك أسباب أُخَر يمكن القول إنّها تقليدية: كضعف الإيمان، والخلل في التربية العقدية، والمشكلات الاجتماعية والنفسية، وغلبة الشهوات، وغير ذلك من الأسباب، لكني آثرت هنا الاقتصار في الحديث على السببين الماضيين؛ كونهما أخص بهذا النمط من الانحراف، وكون المعالجة لهما لا تزال ضعيفة جدًّا.

من أهم أسباب الانحراف نحو الفكر الليبرالي والليبروإسلامي:

الليبرالية تعني في الأصل: التحرر من سلطة الدين على العقل، وتطور هذا المصطلح لينتهي إلى تحرير العقل من كل سلطة أيًّا كانت؛ ومن ثَمَّة تحرير الأفعال من أيّ حدود يمكن أن تحدَّها، سوى سلطة القانون التي هي موضوعة لحماية الحريات من التضارب[1].

أمَّا اليبروإسلامية: فيمكن إطلاقها على محاولات الجمع بين المبادئ الليبرالية والدين الإسلامي، وربما تسمَّى هؤلاء بالاتجاه العقلاني أو التنويري.

والغالب على الشباب المتدين الذي تستميله الأفكار الليبرالية هو انتهاجه لليبروإسلامية؛ لأن هذا الفكر يوفِّر له شعورًا بعدم القطيعة مع التدين، وأيضًا شعورًا بالتوافق مع معطيات العصر الحديث.

أمَّا من ينحرفون إلى الليبرالية الخالصة فهم أولئك الذين يشعرون فعلًا بتناقض مبادئ الدين مع الفكر الليبرالي، ويرون أنَّهم بالفعل عاجزين عن أسلمة الليبرالية، أو لبرلة الإسلام، فيعتنقون الليبرالية بعُجرها وبُجرها، ويُبقون على تدينهم في شعائر، يخضع أداؤها والامتناع عنها إلى القرار الشخصي.

ولعلي أقتصر في أسباب الانحراف إلى الليبرالية أو الليبروإسلامية على الأسباب التالية:

---

(١) يختلف الليبراليون اختلافًا كبيرًا في تعريف مذهبهم، وما ذكرته تلخيص للحد المتفق عليه من كتاب: الليبرالية، تأليف باسكال سلان، ترجمة تمالدو محمد.

أولًا: وجود رجال ممن عُرفوا بالعلم الشرعي، والقيام بالدعوة إلى الله تعالى، يقدمون فتاوى في العبادات والمعاملات والجنايات، والسياسة الشرعية، تتماشى مع ما يطرحه التيار الليبرالي من رؤى؛ والفرق بين هؤلاء العلماء وبين الليبراليين ربما لا يلاحظ سوى في الجذور الفكرية لكل منهما، وفي مدى الالتزام بعمل اليوم والليلة من التكاليف الشرعية.

وقد ساهم هذا النوع من الفتاوى في إذابة الرؤية للشخصية المسلمة لدى بعض الشباب؛ إذ لم يعد يفهم الفرق بين الرؤية العامة للحياة بين الإسلاميين وفق فتاوى العقلانيين، وبين الليبراليين من أبناء المسلمين، فالجميع يمارسون العبادات، والجميع لا يَرَوْن ضرورة لتطبيق الشريعة ويجعلونها خيارًا شعبيًّا، والجميع لهم وجهة نظر في حدِّ الردَّة وحدِّ الرجم، ويرون الخلاف فيهما خلافًا سائغًا، والجميع يكادون يتفقون في قضايا المرأة، فبمجرد أن تدير المرأة قماشًا على وجهها تصبح محجبةً، قائمةً بالأمر الشرعي، ويباح لها بعد ذلك السفر وحدها دون ضابط منضبطة، والعمل في أماكن الاختلاط بالرجال، بل والمشاركة في تمثيل المسلسلات والأفلام السينمائية، والسباحة بملابس البحر عند الحاجة[1].

وكون بعض أصحاب هذه الفتاوى من أهل العلم، وممن لهم سابقة في الدعوة، جعل بعض الشباب يتجهون في انحرافهم نحو هذا الاتجاه، ومنهم من حصلت لديه نقمة من أهل العلم المعملين للنصوص، ومنهم من لم يجد فرقًا بين هؤلاء العقلانيين والليبراليين، فانحدر مباشرة نحو الاتجاه الليبرالي عقيدة وممارسة.

ثانيًا: الهزيمة الحضارية والغرور المعرفي

ما يُسمى بالهزيمة الحضارية داءٌ خطير، يبدأ سريانه في الأمم عند مفاصلَ تاريخية في حياتها، منطَلِقًا في الغالب من أفراد يتمتعون بهمة عالية، وقدرات عقلية

(١) راجع في هذه الفتاوى كتاب: تجديد الدين لدى الاتجاه العقلاني المعاصر، تأليف د. أحمد اللهيب.

وبيانية متميزة، لكنهم باجتماع هاتين الصفتين فيهم يكتسبون غرورًا معرفيًّا، يفقدهم المناعة ضد هذا الداء عند أقوى صدمة ثقافية يواجهونها، فتجعلهم يترنحون وينقلبون على أنفسهم وماضيهم بدرجات مختلفة ومتباينة في قوتها واتجاهاتها.

وكانت أول علاقة للأمة الإسلامية بهذا المرض، بعد مقتل عثمان - رضي الله عنه - والفتنةِ التي شجرت بين الصحابة، حينما لم يستطع البعض فهم ما حدث في سياقه الطبيعي، كما فعل جميع الصحابة وعلماء التابعين، فظهرت طلائع الخوارج والشيعة والقدرية والمرجئة، وبدأوا ينحرفون في إجابة استشكالاتهم التي أحدثتها تلك الصدمة عن النص القرآني والنبوي، وعن فهم الصحابة لهذه النصوص إلى أهواء: إمَّا سياسية وشعوبية، أو آراء خاصة تتلبس لباس العقلانية، أو الاستقاء من ضلالات أمم سابقة يجعلونها محورًا يحاكمون النصوص الشرعية إليه، ويأولونها لتتوافق معه.

وكانت تلك الطوالع الانهزامية مع الذات؛ أي: إنهم لم يستوعبوا حلول المشكلات الفكرية الطارئة، من داخل دستور الأمة، وهو النص الإلهي، فبغوا عليه كما قال تعالى: ﴿**وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ**﴾ (البقرة: ٢١٣). لكن هذا الأمر سرعان ما تطور ليكون هزيمة مع الآخر؛ أي: تحت وطأة الثقافة الوافدة والانقياد إليها، كما حدث فيما بعد؛ حين لبست تلك الانحرافات لبوس الفلسفة والمنطق وعلم الكلام؛ بحثًا عن مستند يعبر عن العجز التام عن الانطلاق من النص.

وشَكَّل عصرنا هذا - والذي تعيش فيه الأمة - هزيمةً حقيقةً وليست مفتعلة، سياسيةً وعسكريةً وتكنلوجيةً، بيئةً أشد ملاءمة للهزيمة الحضارية التي جرفت الكثيرين من العلماء والعقلاء والمُفَكِّرين ليُمَارِسُوا البَغْيَ الشديد على تراثهم ودينهم ومقدساتهم، بين متطرفٍ في هذا البغي منقلبٍ على أمته بالكلية، وبين من

يحاول المواءمةَ بين معطيات الحضارة الغالبة – الغربية – وبين حضارة أمته؛ عن طريق إنكار النصوص، أو صرفها عن معانيها لصالح المُعْطَى الغربي الوافد؛ وهذا الاتجاه هو ما يُعَرِّفُه البعض باتجاه التنوير الإسلامي أو الليبروإسلامي.

والنماذج على ما قدمت من انحرافات هؤلاء باتجاه المُعْطَى الغربي عديدة؛ لكنني أختار للحديث هنا موقفُ كثير منهم من النسخ في القرآن، كمثال صارخ على جرأتهم على نسف مُسَلَّمات الأمة؛ من أجل التراضي مع ما يتصورون أنَّها قِيَمٌ غربية، تحت مزاعم تنقية التراث، والتجديد الديني، والإصلاح، وغير ذلك من تسمية الأشياء بغير أسمائها.

فالنسخ مصطلح جاء به القرآن الكريم عَلَمًا على عدد من القواعد التي لا بدَّ للمجتهد من مراعاتها عند استنباط الأحكام الشرعية من النصوص، منها: رفع الحكم إلى غير بدل، ورفع الحكم وإبداله بآخر، مع إبقاء النص الدَّال على الحكم الأول، أو رفعه أيضًا، ورفع النص الدَّال على حكمٍ معين مع الإبقاء على ذلك الحكم؛ ويَقَعُ النسخ في القرآن بالقرآن، وفي القرآن بالسنة، وفي السنة بالقرآن، وفي السنة بالسنة؛ ومن الأصوليين من يضمون إلى النسخ تخصيص العام، وتقييد المطلق.

وتفاصيل قواعد النسخ فيها خلاف بين العلماء، أمَّا وقوعه في الجملة فلم يقع بين المسلمين فيه خلاف، لا في عهد الصحابة الذين هم أعلم الخلق بمراد الله ومراد رسوله ﷺ، ولا بين التابعين وتابعيهم؛ وظل هذا الأمر محلَّ اتفاق بين أمة محمد ﷺ، جيلًا بعد جيل، سنَّتِهم ومبتدعتِهم، حتى القرن الخامس الهجري، إذ نُسِبَ القول بإنكار النسخ إلى أديب معتزليٍّ، له مشاركات في العلم الشرعي، وليس من الذين يعتبر قولهم في مسائل الشريعة؛ وهو أبو مسلم محمد بن بحر الأصبهاني المتوفى سنة (٤٥٩هـ)، ومع ذلك فلم تثبت عند المحققين نسبة هذا القول إليه؛ وكان أولَ من انتقده علماء مذهبه من المعتزلة، الذين كانوا عبر تاريخ

الإسلام أجرأ الناس على محاكمة النصوص إلى عقولهم؛ ولم يعرف بعده من يقول بذلك سوى أفراد معدودين على مدى التاريخ، حتى جاء العصر الحديث وابتلي بعض مثقفي وعلماء الأمة بالهزيمة الثقافية، فأعادوا بعث هذا القول من مرقده.

والمصيبة اليوم ليست في إنكار قاعدة أو قواعد أصولية وحسب، بل في كون إنكار النسخ تهمةً شنيعةً للأمة من عهد الرسول ﷺ حتى عصرنا الحاضر، بأنها أثبتت قواعد في فهم النصوص ليست من الشريعة في شيء، وما أنزل الله بها من سلطان، كما يزعم بعضهم، وأسطورية كما يأفك آخرون.

ويلزم من هذا القول لازم خطير لا يمكن انفكاكه عنه، هو إمكانية التشكيك في كل ما أجمع عليه الصحابة وتابعوهم وتابعوهم، فلا يعود لإجماعهم عصمة، ولا لتواطئهم على أمر حجية؛ بل إذا نُزِعَت العصمة والحجية مما ثبت إجماعهم عليه، فأحرى أن تسقط أقوالهم التي اختلفوا فيها، وأن تذهب أدراج الريح ولا يعود لها أدنى صدقية، ولا يرفع بها محتج رأسًا؛ بل إذا قِيل: إنهم تواطؤوا على إثبات باطل النسخ وأسطورته - كما يزعمون - فما الذي يمنع قائلًا أن يقول بتواطئهم على إثبات غيره من الباطل في الشريعة؛ حاشاهم ذلك، ورضي الله عنهم ورحمهم.

والمصيبة الأعظم أن هذا التسفيه لأفهام الصحابة والتابعين وتابعيهم وأئمة الإسلام عبر أربعة عشر قرنًا، جاء من أجل إنكار ما اصطلح عليه الفقهاء بجهاد الطلب، وإنكار حَدِّ الرجم للزَّاني المحصن، فرارًا من اتِّهام الغرب للإسلام بعدم التسامح، أو الوحشية في العقوبات؛ وهذا وفق تصريح منكري النسخ، وليس تقولًا عليهم.

فيا له من ثَمَنٍ بخسٍ أن يَنْسِف المثقف تاريخ أمته ووعيها من أجل خرافة التسامح التي لا يخفى على متابعٍ للتاريخ أن الغرب من يوم أطلقها في الثورتين: الإنجليزية في القرن السابع عشر، والفرنسية في القرن الثامن عشر؛ لم يعمل بها

حِقبة من الدَّهر، بل كانت فكرة التسامح هي أكثر أسلحته فتكًا في العالم؛ إذ تحولت بريطانيا وفرنسا بعد ثورتيهما من أجل التسامح إلى أكبر دولتين استعماريتين في التاريخ الإنساني، ولقي العالم على يديهما من العتو والجبروت ما لم يُعْرَف سوى في تاريخ أسلافهم الرومان.

وهنا أقف بالقارئ الكريم قليلًا مع بعض أدلة النسخ في القرآن؛ ليعرف سبب هذا الإطباق من الأمة عبر قرونها الأربعة عشر على القول به؛ فمنها قوله تعالى: ﴿**مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾ (البقرة: ١٠٦). وليس للمفسرين من الصحابة والتابعين قولٌ في معناها غير كونها دالةً على النسخ؛ الذي هو رفع الحكم أو التلاوة، وليس لهم في معنى ﴿**آيَةٍ**﴾ قولٌ سوى أنها الفقرة من القرآن؛ وأيُّ تفسير لها بغير ذلك فهو محدَثٌ مختلَقٌ، لا يعرفه الصحابة ولا التابعون، فأيُّ جرأة وغرور أكبر من أن يأتي مُحْدثٌ في تفسير آية بما يخالف قول الصحابة والتابعين وأئمة التفسير وأصول الفقه في كل العصور!

وقال تعالى: ﴿**وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (النحل: ١٠١). وليس في أقوال المفسرين سوى أن المراد بالتبديل: النسخ على اختلاف عباراتهم في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿**الْآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا**﴾ (الأنفال: ٦٦). ليس في أقوال المفسرين، ولا رواة السير، ولا أهل الأصول، سوى أنَّها جاءت ناسخة لقوله تعالى: ﴿**إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ**﴾ (الأنفال: ٦٥).

وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ**﴾ (المائدة: ٩٠). وليس في كلام المفسرين من الصحابة، ومن بعدهم غير كونها نسخًا للإباحة أو الكراهة المستفادة من عدد من الآيات المتقدمة عليها في النزول.

فقوة أدلة النسخ في القرآن، وإطباق الأمة على فهم دلالتها على رفع الأحكام والنصوص، إنَّما هي أمثلة على قوة أثر الهزيمة الحضارية على المُثقَّف، حيث تفقده القدرة على تقييم الأدلة، فيأنس إلى ترجيح المعاني المُشكِلة والمرجوحة، ويستعمل لإقناع قُرَّائِه أو مستمعيه حشد الشبهات وتهويل الأرقام وتضخيم اللوازم الفاسدة؛ ليُخفي عن الأعين مظهره المنهزم أمام حضارات الآخرين؛ ليحاول أن يبدو مُصَحِّحًا ومُصلحًا ومجددًا ومكتشفًا.

فإذا كان هذا شأن المنهزمين حضاريًّا مع قضية أبين من الشمس كالنسخ؛ فإنَّ حالهم في القضايا التي تقل عنها في الوضوح كحدِّ الرِّدة وقضايا المرأة أكثر مأساوية؛ ويضعنا بحق أمام قوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ**﴾ (آل عمران: ٧).

ثالثًا: الانقضاض على تاريخ الأمة

الأمة الإسلامية ذات تاريخ عظيم ومضيء، والتفات شباب الأمة إلى تاريخها العظيم مؤذن بحماسة نحو العودة إليه، وهذه نظرية في تفسير التاريخ تُسمَّى نظرية التحدي والاستجابة، وصاحبها مؤرخ بريطاني يُدعى أرنولد توينبي، وخلاصتها أن الأمَّة ترمُوا دائمًا إلى تاريخها، وحين تريد أن تعود إلى النهضة من جديد فإنَّها تستحضره.

وقد شكَّل تنزيل هذه النظرية على المسلمين وتاريخهم تحركًا حثيثًا نحو الحيلولة بين شباب الأمة وتاريخها؛ فجاءت الحملات المسعورة على التاريخ الإسلامي، من قِبَل المستشرقين الأوربيين من نهايات القرن التاسع عشر؛ لكن جهود المستشرقين ضعف تأثيرها مع مرور السنين، وقويت مقاومة مثقفي الأمة وعلمائها لافتراآتهم وحملاتهم التشويهية.

ومع بزوغ الإعلام الحديث وانتشاره بين الشباب، ظهرت أصوات مشبوهة تعمل على تشويه تاريخ المسلمين السياسي والتشريعي في نظر الشباب؛ وقد ساعد

ضعف التوجه نحو البحث والقراءة، والاقتصار على ما تتم قراءته أو سماعه عبر الوسائط الإلكترونية، أقول: ساعد ذلك على انتشار الفكر المشوه للتاريخ بشكل كبير جدًّا.

ومن ثَمَّ سحبه من الشباب إلى قائمة الحاقدين على التاريخ والتراث الإسلامي، تلبستهم مشاعر الضعف والهوان أمام الحضارات المعاصرة، التي تمّ تزيينها في أعينهم، وشعروا أنّهم وتاريخهم وأمتهم عالة عليهم، فهانوا على أنفسهم، وانكسر عندهم حاجز المناعة ضد الفكر الوافد من وراء البحار، ذلك الفكر الذي انتابهم الشعور بأنّه لا بدَّ لهم منه، فهو تِرياق التقدم والعِزَّة والانتِصار.

هكذا أصبحت الصورة عند بعضهم، وهكذا تيسرت فتنتهم وانحرافهم.

أبيض

الخاتمة والتوصيات

لا أزعم أنني بهذه الأوراق قد قدَّمت كلَّ ما يمكن تقديمه من أسباب الانحرافات الفكرية بين الشباب، لكنني اقتنصت من الأسباب الكثيرة ما بدر لي أنَّها أمهات الأسباب وأصول المشكلة، كما أنني تركت من الأسباب ما كثُر تداوله في العديد من أوراق العمل التي رأيتها منشورة عبر الشبكة العنكبوتية؛ وهي أسباب كما قدَّمت في صلب البحث يمكن وصفها بأنَّها تقليدية لا يخلو منها أيَّ انحراف: كالجهل والبيئة التربوية.

وأخرج من هذه الورقة بالتوصيات التالية:

١- الدَّعم التعليمي والإعلامي لكل المشاريع العلمية والبحثية والإعلامية التي تُبرز تراث الأمة العظيم دينيًّا وسياسيًّا وعلميًّا.

٢- بذل الجهود لبيان عقيدة وفقه السلف - رحمهم الله - وما يقدِّمانه من الحلول للمشكلات الحضارية في حرب الخرافة، وإعلاء العقل والسِّلم.

٣- تقديم مقالات السلف في بيان مكانة العقل في الإسلام، بأسلوب معاصر ومختصرٍ في وسائط إعلامية متعددة؛ وذلك كآراء شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه درء تعارض العقل والنقل، فهي آراء بديعة تستحق أن تبرز وتُنقل إلى أبنائنا الشباب.

٤- إقامة مشاريع تعليمية خاصة جدًّا؛ لإحياء العلوم الشرعية، وبناء العلماء، كما فعل السلاجقة حين أنشأوا المدارس الشرعية التي آتت أكلها الذي لا نزال نعيشه حتى اليوم.

٥- إحياء الوعظ الشرعي، وعلم السلوك، في وقت غلبت فيه النظرة المادية، وخلت فيه العبادات من الخشوع، وقلَّ الخوف من الله تعالى، وشاع الإرجاء في النفوس، ولا دواء لذلك إلا بإعداد الوعاظ البلغاء الذين تصل كلماتهم إلى

الأعين والقلوب، وبالوعي والزهد والتسليم لله - عز وجل - يقلُّ الانحراف، ويضعف كيد الشيطان.

٦- توجيه النداء إلى الإعلام في جميع أنحاء العالم الإسلامي لمحاربة مشاريع التغريب العالمية، وعدم الاستجابة لها.

٧- العمل على الردود السريعة على الشبهات، وعدم تركها تعلق في أذهان الشباب، وتسخير المراكز العلمية لذلك.

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين